أشهر العلماء فى التاريخ

10

مؤسس
علم
الصيدلة

ابن البيطار

عاطف محمد



أشهر العلماء فى التاريخ

ابن البيطار

مؤسس علم الصيدلة

عاطف محمد

دار اللطائف للنشر والتوزيع
72 شارع مجلس الشعب - القاهرة هاتف وفاكس 3917212 هاتف محمول 0101055155



72 شارع مجلس الشعب ـــ القاهرة
هاتف وفاكس 3917212 (00202)
هاتف محمول 0101055155 (002)

بريد إليكترونى:
lataaif@hotmail.com

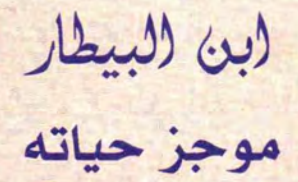
المدير العام
أحمد محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الكتاب	مؤسس علم الصيدلة ابن البيطار
اسم المؤلف	عاطف محمد
الطبعة الأولى	2003

رقم الإيداع 2003/1757

I.S.B.N 977-5644-77-1



ابن البيطار

موجز حياته

وُلِدَ « عبد اللَّه بنُ أحمد البيطار » عالـمُ النباتِ العربىُّ الشهير فى « ملقا » ، وكان مولدُه فى « ملقا » فى الأندلس عام ستمائة وستٍ وأربعين هجرية ، ألف ومائتين وثمانية وأربعين ميلادية . وقتها كانت « ملقا » من المدنِ العربيةِ الواقعةِ على الشاطئ الجنوبىِّ الشرقىِّ للأندلسِ ، وهى من أجمل بلادِ الأرضِ ، ومن أكثرِ المدنِ العامرةِ بالتجارةِ والصناعةِ والزراعةِ والسياحةِ ، ومختلف أنواعِ الحرف والفنونِ . وقد شهدت هذه المدينةُ الكثيرَ من الأحداثِ وعاش أهلُها يتناقلون ما مرَّ بها من الحوادثِ التاريخيةِ والسياسيةِ والعسكرية المهمة سواء ؛ فى عهود ملوكِ الطوائفِ ، أو سلاطينِ المرابطين أو الموحدين .

فى هذه المدينةِ ذات التاريخِ العظيم المدينةِ العامرةِ بأجملِ البساتين وُلِدَ « عبد اللَّه أحمد البيَطار » ، فكانت حرفةُ والدهِ البيطرةَ ، أى علاجَ الحيوانات ، وكان إلى

جانبِ ذلك يعمل حدادًا لحداوى الخيلِ ، وقد حرص « أحمد البيطار » على تنشئةِ ابنه الصغيرِ وفقًا لتعاليم الدين الإسلامى ، وقد شبَّ « عبد اللَّه » بالفعلِ عارفًا بأركانِ الدينِ عالِمًا بأسرارِ حرفةِ البيطرةِ ؛ فلم تكن هناك كبيرةٌ ولا صغيرةٌ فى هذه الحرفةِ لم يكنْ « عبد اللَّه » على خيرِ علمٍ بها ، وكان ذلك عندما بلغَ من العمرِ عشرَ سنواتٍ .

ومع ذلك لم يكنْ « عبد اللَّه » يحبُّ هذا العملَ ، ويبدو أنه لم يكنْ يفكرُ فى أنه سينشأ ليحترف مهنة البيطرةِ مثل والدِه ، وكذلك لم يكنْ العملُ فى صناعة الحداوى يستهويه ؛ ولذلك كان « عبد اللَّه » يترك البيت كثيرًا ، وينطلق إلى الغابة ليقضى معظم الوقتِ متجولاً بين الأشجارِ والنباتاتِ والأزهارِ ، أو متأمِّلًا على شاطئ البحرِ أو النهرِ ، أو باحثًا عن الكائناتِ الغريبةِ فى سفوحِ جبلِ الفتحِ .

وكان « عبد اللَّه » يستهويه أن يقضىَ أغلبَ الوقتِ فى تأمُّلِ الطبيعةِ عمومًا ، وكثيرًا ما كان يعمد إلى رسم الأشجارِ والأزهار والنباتات ، وقدْ راح بعدما لمسَ حبَّه العظيمَ لها يجمع عنها المعلوماتِ ويدونها ويحفظُها .

حاولَ « أحمدُ البيطار » أكثرَ من مرةٍ أن يحبِّبَ ابنَه فى مهنة البيطرةِ لكنَّه فشل ، كان الفتى « عبد اللَّه » دائمًا يتركُ الدارَ فى الصباحِ المبكرِ ، ويتجه إلى الغابات ومعه القليلُ من الأوراقِ والأحبارِ الملونةِ ، وكان يقضى طِيلةَ اليومِ فى الغابةِ ، حيث يقومُ بصيدِ الأسماكِ من النهرِ ، ويشويها على نارٍ يوقدُها بنفسهِ ، ثم يتناول طعامَه ويستغرقُ بعد ذلك فى رسمِ الأشجارِ والأزهارِ والنباتاتِ ، وكثيرًا ما أبدى « أحمد البيطار » قلقَهُ على ابنه ؛ بسبب نفورهِ من مهنةِ البيطرةِ ، ولكن زوجتَه كانت تقول له دائمًا : لا تقلق . . إن ولدَنا لم يُخلق ليمارسَ البيطرةَ ، أظنُّه يميل أكثر إلى أن يكون عشَّابًا ، أو صيدليًا ، فإنه يحب النباتاتِ والزهورَ والأشجارَ ، ألم تشاهدْ كيف يرسمها ببراعةٍ ؟!

عندئذٍ لم يملكْ الأبُ إلا أن يبتسم ويقول : أتمنى أن يصبح ولدى أفضلَ منى ،لكم أتمنى أن أراه من أعظمِ العلماءِ فى الصيدلةِ ، ولذلك فقد قررتُ أن أتكلم مع صديقى . . « ابن الروميَّة » . . العالمِ المشهورِ فى النباتاتِ عندما يأتى لزيارتِـنـا ، فأنتِ تعرفـينَ أن « ابن الروميَّـة » العطارَ من أعظمِ أهل الزمانِ فى علْمِ النباتِ ، وتركيب

الأدويةِ . . ولو صار ابنى « عبد اللّه » على دربِ هذا العالِمِ وأخذ عنه العلْمَ لأصبح هو أيضًا من أعظمِ علماءِ النباتِ العربِ .

لقد سمع « عبد اللَّه » والده ذاتَ مرة يتحدث عن العالِمِ « ابنِ الروميَّة » ، وعن مكانتهِ العلميةِ ، وتمكنهِ العظيمِ من علومِ النبات والصيدلة وتركيبِ الأدويةِ ، فغلبَهُ الانبهارُ حتى سألَ والدَه : ألن يأتى هذا العالِمُ لزيارتِنا يا أبى فقال « أحمد البيطار : « نعم سيأتى . . إنه يقيم فى إشبيليةَ . . ولكنه وعدنى أنه سيأتى لزيارتنا ، وسيُحضِرُ لى معه الكثيرَ من النباتاتِ التى أصنع منها العقاقيرَ والأدوية والتى استخدمها فى علاجِ الحيواناتِ .

منذ تلك اللحظةِ عاش « عبدُ اللّه » يحلم بلقاء « ابن الرومية » ، وذات يوم عاد « عبدُ اللّه » إلى البيت ، وفوجئ بوالدته تخبره بأن والدَه فى إحدى غرفِ الدارِ مع العالِم الشهيرِ « ابن الروميَّة » ، وأن والده يتحدث مع صديقِه العالمِ فى شأنِ تعليمه ، فطار قلبُ « عبد اللّه » من الفرحِ ، واندفع إلى الغرفةِ حتى يحظى بلقاءِ العالِمِ الكبيرِ .

ومضت لحظاتٌ كان فيها « عبد اللّه » بعدها يعرضُ رسوماتهِ النباتيةَ على « ابن الروميَّة » الذى راح يطالعُها بسرورٍ ، وارتسمت على محيَّاه ابتسامةٌ أدرك « أحمدُ البيطار » مغزاها ، وفرح لها قلبُه ، وبعدئذٍ قال « ابن الروميَّة » :

لقد حدثتنى عن ابنِك وعن الذَّكاءِ الذى يتمتعُ به يا صديقى ، وذكرتَ لى أنك تخشى عليه من عدمِ اهتمامهِ بحرفةِ البيطرةِ ، لكن الآن أقول لك : إن ابنَك أكثرُ ذكاءً مما ذكرتَ لى . . إننى أتنبأ له بمستقبلٍ عظيم . . لكنه لن يكون مثلَكَ ، ولن يحترفَ البيطرةَ ، بل سيصبح هذا الفتى من علماءِ النباتِ مثلى ، وفرح « عبد اللّه » وصاح قائلًا :

حقًّا يا سيدى ؟ هل تقبلُ إذن أن تعلمنى علمَ النباتِ ؟!

وضحك « ابن الروميَّة » وهو يقول : حقًّا يا « عبدَ اللّه » لكن أرنى بعضَ رسومِ النباتاتِ مرةً أخرى .

وأسرع « عبد اللّه » ليعرضَ على العالِم « ابن الروميَّة » بعضَ رسوماته الملونةِ ، فطالعَها « ابنُ الروميَّة » بدهشةٍ وهو يقول : من أين أتيت بهذه الألوانِ ؟

فقال « عبدُ اللَّه » : حصلتُ عليها من عُصَارَةِ بعضِ النباتاتِ ، وصنعت منها أصباغًا مزجتُها ببعضِ الأحبارِ وقمت بتثبيتها بالصمغ .

فابتسم « ابنُ الرومية » وهو يقول : لقد وصلت فى علم النبات إلى ما لم يصلْ إليه مَنْ هم أكبرُ منك سنًّا بكثير يا « عبدَ اللَّه » . . بل إن الذين يعرفون كيف يحصلون على الصبغياتِ من بعضِ أنواعِ النباتاتِ لا يعرفون كيف يثبتونها بعد مزجها بالأحبارِ ، لكى تظلَّ ثابتةً ناصعةً لأطولِ فترةٍ ممكنةٍ ، وليس من شكٍّ أن جهلهم هذا يرجع لعدم كفايةِ معرفتهمْ بأسرارِ وخصائصِ النباتاتِ .

أما أنت . . فقد توصلت بنفسِك ، وبجهدِك الخاصِّ إلى معرفةِ الكثيرِ من المعلوماتِ عن النباتاتِ وخواصِّها وتركيبها ، لم يساعدْك معلِّمٌ ، ولم تأخذْ عن خبيرٍ ، فإن دلّ ذلك على شىءٍ فإنما يدلُّ على عشقك العظيمِ لعالَمِ النباتِ ، كما يدل على فطرتِك السليمةِ ، وقوةِ عقلِك ، وما تتمتع به من الذَّكاءِ والموهبةِ .

عندئذٍ قال « عبد اللَّه » فى فرحٍ شديدٍ : إذن لقد قبلتَ أن تعلمنى علومَ النبات . . فهل تأخذنى معك إلى إشبيليةَ ؟ . . وهنا أطرق « ابن الروميَّة » . . قليلاً ثم قال : كلاَّ .

ووجم « عبد اللَّه » حتى امتقعَ وجهُهُ فاستطردَ « ابن الروميَّة » قائلاً : أقصدُ أن عليك أن تقضى بعضَ الوقت هنا . . فى أحضانِ الطبيعةِ ، لكى تتعرفَ بنفسك على ما كنتَ تفعلُ من قبلُ على أنواعٍ جديدةٍ من النباتاتِ ؛ ولسوف يجعلك ذلك تتوصل إلى الكثيرِ من المعارفِ بمجهودِك الذاتىِّ وبطريقتك الشخصيةِ . . إننى أقصد من ذلك أن أتيحَ لك المزيدَ من الوقتِ لتنمية أسلوبِك الخاصِّ فى التحصيل العلمىِّ ، لأننى إذا حشوت رأسَك بكلِّ ما أعرفه من علومِ النباتِ دون أن أتيحَ لك الفرصةَ ، فإن مكانتك سوف تتحجر ، وسوف يكتفى عقلُك بما قام بتحصيله من معارفَ . . وأنت يا ولدى عبقريةٌ فذةٌ يجب أن تتاح لها الفرصةُ! وبعدها تأتى لزيارتى والعيشِ معى .

دخلَ « ابن الروميَّة » على « ابن البيطار » أكثرَ من

مرةٍ فى المعملِ ، وكان « ابن الرومية » يَدْهَشُ فى كل مرةٍ عندما يرى « ابن البيطار » منكبًا على أوراقه منهمكًا فى رسمِ كلِّ محتويات المعمل : فلم يكن « ابن البيطار » يكتفى برسم النباتاتِ النادرةِ فقط التى رآها فى مَشْتَل « ابن الروميَّة » فَحَسْب ، إنما راحَ يرسمُ أيضًا أدوات المعملِ وأجهزتهِ ، وعندما سأل « ابن الروميَّة » تلميذه « ابن البيطار » عن سببِ قيامهِ برسمِ هذه الأدواتِ قال« ابن البيطار » :

إننى أرسمُ كلَّ ما تقع عليه عينى هنا ؛ حتى أتمكن من حفظِ كل شىءٍ ، إذ من المستحيلِ أن ينسى الإنسانُ شيئًا قام برسمه بنفسه ، وأنا أريدُ أن أحفظ كل شىءٍ عن النباتاتِ وأدواتِ المعملِ ، لكى أتمكن فيما بعدُ من إنشاءِ معملى الخاصِّ .

عندئذٍ قال « ابن الروميَّة » : إذن . . فأنت لا تنوى أن تظلَّ معنا فى أشبيلية ؟!

فقال « ابن البيطار » : إذا رحلتُ فسيكونُ رحيلى فى طلبِ العلْمِ ، وأنت تعلمُ أننى أريدُ اكتسابَ المزيدِ من

العلْم والمعرفةِ ، ولا أريدُ أن أقفَ عند حدودِ معارفى التى اكتسبتُها فى الماضى ، أو تعلمتُها منك ، أريد أن أتجاوزَ هذه المرحلةَ ، وأن أبحث عمَّن هو أعلمُ منا ؛ لكى أتلقى العلْمَ على يديه ، فلقد نذرت حياتى للعلمِ ، وسأسعى فى طلبِه فى مختلَفِ البلادِ .

عندئذٍ قال « ابن الرومية » : سأعلمك كلَّ ما أعرفُه عن عالَم النباتِ . . ولن أطالبكَ بالبقاءِ كثيرًا فى أشبيلية ما دمت تحملُ فى جوانحِك هذه التواقة إلى التفوّقِ والتزودِ بالمزيد من العلْمِ والمعرفةِ .

نزل « ابن البيطار » على رغبةِ والده وتزوَّج ابنة خالتهِ ، كان كلُّ ما يفكر فيه « ابن البيطار » هو أن يدفعَ والدهُ إلى الموافقةِ على الهجرةِ إلى المغرب ، فوالده يحترفُ حرفةً تمكِّنه العيش بها فى أى مكانٍ ، وهو يريدُ أن يذهب إلى المغرب خاصةً لأن أستاذَهُ « ابن الروميَّة » قد أخبره أن ما لا يعرفُه من علُوم النباتِ سوف يجده عند عالمِ النباتِ المغربىِّ « أبو الحجاَج » .

وهكذا تزوَّج « ابن البيطار » ابنةَ خالتِه « خضراء » ،

ثم اصطحب أهلَه إلى « أشبيلية » ليودّع أستاذَه « ابنِ الروميَّة » ، ولم يُطِلْ « ابن البيطار » المقامَ فى « أشبيلية » فقد ترك أهله وزوجته فى كَنَفِ أستاذِه « ابن الروميَّة » وأخذ من أستاذِه رسالةَ توصيةٍ إلى عالمِ النباتِ المغربىِّ « أبو الحجاج » ، ثم عاد إلى ميناء « ملقا » ليستقلَّ إحدى السفن الذاهبةِ إلى مدينةِ « سبتة » ، وكانت نيَّةُ « ابن البيطار » هى أن يذهبَ وحدَه إلى المغربِ ليمهدَ الأمورَ ، فإذا تمكن من الحصول على دكانٍ لوالده ليمارسَ فيه مهنته ؛ أرسل فى طلبِ أهلِه وزوجتِه .

وبالفعلِ وصل « ابن البيطار » إلى بيتِ أستاذِه الجديدِ « أبو الحجاج » ، وقد رحَّب به الأستاذ كثيرًا ، وقال له بعد أن جلس إليه وعرفَ ما عنده من معارف علومِ النباتِ :

« إن ما عندك لا يقلُّ عما هو عندى يا « ابن البيطار » من العِلْم . . فإذا أردتَ المزيد ؛ فعليك بالرحيلِ إلى بلاد اليونان والرومانِ ؛ لترى النباتاتِ هناك بعينِك وتسجِّل أوصافَها ورسوماتِها بنفسك ، وتلتقى بعلماءِ

اليونانِ والرومانِ الذين أخذوا العلمَ عن أجدادِهم العظماءِ من أمثالِ « سقوريدس » و « جالينوس » وغيرهما ، والمشكلةُ الآن هى أنك يجب عليك أن تتعلم اللاتينيةَ لغةَ أهلِ اليونان والرومان ، وأنا سأعلْمُك هذه اللغةَ فى بضعِ سنين » .

عقدَ « ابن البيطار » العزمَ على البقاءِ فى المغربِ إلى حينٍ ، وبعد فترةٍ قصيرةٍ تمكَّن من استئجار البيتِ الذى حلم به دائمًا ، كما استأجر دكانًا لوالدِه فى سوقِ سبتة ، وأرسل بالبريد يستقدمُ أهلَهُ وزوجتَهُ . . واستقرَّ « ابن البيطار » مع أهلِهِ فى سبتة التى كانت شبه « ملقا » إلى حدٍّ كبيرٍ . . فهى مدينةٌ ساحليةٌ تكثر بها الحرفُ والصناعاتُ ، ولذلك ستجد حرفةُ والدِه « ابن البيطار » رواجًا ، وسيكثر رزقَ العائلةِ ، ويتمكن « ابن البيطار » من التفرغِ لأستاذِه « أبو الحجاج » ؛ ليأخذَ على يديه العلمَ .

وبالفعلِ بدأ « ابن البيطار » يتعلَّمُ اللاتينيةَ ، ويقرأ الكتبَ اليونانيةَ والرومانيةَ ، ويأخذ عن « أبو الحجاج » معارفَه فى علومِ النبات ، وبعد عدةِ سنواتٍ قرر

« ابن البيطار » أن يسافرَ إلى بلادِ اليونانِ ، فنصحه أستاذهُ « أبو الحجاج » أن يتخذَ لنفسه اسمًا جديدًا ، وألا يجاهرَ بديانتِه وأصلِه حتى يَسْلَمَ من شرِّ الناس فى بلادِ الأعداءِ ، وقد كان « ابن البيطار » أشقرَ البشرةِ تشبه ملامحُهُ ملامحَ أهلِ اليونانِ ، ولذلك قال له شيخُه وأستاذُه :

سوف تساعدُك ملامحُك وتسهّلُ لك الأمورَ حتى تحيا بين أهلِ اليونانِ كأنَّك منهم ، وعليك أن تتسمى باسم من أسماءِ أهل هذه البلادِ ، وأن تسترَ عقيدَتَك وأصلَك عن العامةِ ، أما العلماءُ فلا خوف عليك منهم .

هكذا تركَ « ابن البيطار » أهله وزوجتَهُ وأستاذَه فى « سبتة » بالمغرب ، واستقلَّ سفينةً كبيرةً شقت عُبَابَ الموجِ وهى تقلُّه على صفحة البحر المتوسط (بحر الروم وقتها) ، لترسو به - بعد حينٍ فى ميناء « سالرنو » فى صقليةَ ، ثم تُكملُ طريقها البحرى إلى فيسيا « البندقية » قديمًا حيث سيحيا « ابن البيطار » غريبًا



فى طلبِ العلْمِ ، والواقع أن « ابن البيطار » لم يكنْ يخشى الغربَةَ ، ولا الحياةَ بين أُناسٍ يعادون قومه ، لأن شغفَه بالعلمِ والمعرفةِ كان أعظمَ من أى خوفٍ يمكن أن يساورَه ، لذَلك لم يكنْ « ابن البيطار » يفكر إلا فى ثمارِ العلْمِ التى سوف يجنيها على أيدى علماءِ اليونانِ والرومانِ .

نهـايةُ الغــربـةِ

بعد سبعِ سنوات قضاها « ابن البيطار » فى بلادِ اليونان ، قرر « ابن البيطار » أن يصحبَ صديقَهُ العالِمَ « سقوريدس الصغير » كما أسماه أبو الحجاج فى رحلةٍ إلى بلادِ بيزنطا (آسيا الصغرى الآن) وهناك تعرَّف « ابن البيطار » وصديقُهُ العالمُ الذى استضافه طوالَ فترةِ إقامتهِ فى بلاد اليونان على الكثيرِ من النباتاتِ ، وقضيا عامًا كاملاً فى دراسةِ النباتاتِ ، ثم افترقا عند حدود الشامِ .

ومن الشام كتبَ « ابن البيطار » رسالةً إلى أستاذِه « أبو الحجاج » يقول فيها : « لقد انقطعتْ أخبارى عنكم طوالَ السنواتِ الماضيةِ ؛ لأننى كنتُ أخشى على

نفسى وحياتى ، مادمت فى الغربةً وفى بلادِ الأعداءِ ، أمَّا الآن فأكتبُ لكم من دمشقَ حتى تطمئنوا على سلامتى ، وأخبرُكم أننى سأذهبُ بعد ذلك إلى مصرَ ، وقد اخترتُ الاستقرار بها ما بَقَى لى من العمرِ ، لكننى سوفَ أترددُ أيضًا على الشام من حينٍ إلى آخر ؛ حتى أستكملَ معرفتى بعلم النبات . . فهاهنا يوجد الكثيرُ من النباتات التى يجبُ أن أعرفَ عنها المزيدَ والمزيدَ ، وعندما أصل إلى مصر سأرسل إليكم بالبريدِ » .

كانت هـذه هى الرسـالةَ الوحيـدةَ التى تمكَّـن « ابن البيطار » من إرسالِها إلى أهلِه وأستاذِه منذ أن غادرَ المغربَ منذ عدةِ سنواتٍ ، وكانت عائلةُ ابن البيطار قد فقدت الأملَ أو أوشكت أن تفقد الأملَ فى وصولِ أية أخبارٍ عن « ابن البيطار » .

ابنُ البَيْطَارِ فى مِصَرَ

عندما وصلَ « ابن البيطار » إلى مصرَ كان له من العمرِ اثنتان وثلاثون سنةً .

فى البدايةِ وصلَ « ابن البيطار » إلى مدينةِ الإسكندريةِ على متن سفينةٍ يونانيةٍ ، ولم يمكثْ « ابن البيطار » كثيرًا فى الإسكندريةِ ، بل وصل منها إلى القاهرة الأيوبية ، وما إن وصل إلى القاهرةِ حتى استأجرَ دارًا فى « جزيرة الروضة » .

وفُوجئ « ابن البيطار » فى اليوم التالى لوصوله إلى القاهرةِ بعسكرِ الملكِ الكاملِ يقفُ ببابه ويخبرونهُ بأن الملكَ يطلبُ مقابلتَهُ ، وبعد قليلٍ كان « ابن البيطار » يقفُ فى حضرةِ الملكِ الذى بادره بقوله :

لقد سبقتك شهرتُك إلينا يا « ابن البيطار » ؛ لذلك فأنا أعرفُ عنك الكثيرَ ، أعرف حتى إنَّك قد وصلت إلى الإسكندريةِ قبلَ شهرٍ ، وعلى سفينةٍ يونانيةٍ ، وأنك وصلتَ إلى القاهرة منذ ليلةٍ واحدةٍ ، وإنك على شىءٍ من الثراءِ . . أليس كذلك ؟!

فقال « ابن البيطار » على الفورِ : نعم يا مولاى . . لقد خرجتُ من بلادى فى طلبِ العلم ، وذهبتُ إلى المغرب ، ثم بلاد اليونانِ ، ثم الشامِ ، وهأنذا قد جِئْتُ إلى

مصرَ ، وقد حققت أثناء غربتى ثروةً من العملِ فى الصيدلةِ والبيطرةِ ، وبيعِ النباتاتِ الطبيةِ للعطارين .

فقال الملكُ الكاملُ : من هو أستاذُكَ ومعلمُكَ الأوَّلُ ؟

قال « ابن البيطار » بفخرٍ : أبو العباسِ الأُمويُّ الأشبيليُّ يا مولاى .

فقالُ الملكُ باندهاشٍ : « ابن الروميَّة » !! . . باركَ اللَّهُ فيه وفيك !! ثم أَلحق الملكُ « ابنَ البيطار » بخدمةِ البيمارستان وصيدليته ، وسمح له بممارسةِ المهنةِ والبقاءِ فى الديارِ .

الحربُ فى بَـرِّ مصر

استقرَّ « ابنُ البيطار » فى مصرَ وعاش حياتَه هادئةً ، وأولاه الملك الكاملُ اهتمامه - كما قلنا - حتى إنه كان يستشيرُه لا فى أمورِ الطبِ والصيدلةِ فحسب ، إنما أيضًا فى أمور الحربِ والسياسةِ ، ومن ذلك ما حدثَ عندما جاء الغزاةُ الفرنسيون إلى مصر ، فأنشأ الملكُ الكاملُ

الاستحكاماتِ جنوبي دمْيَاط إلى المنصورة ، ولكنْ ظلَّ النيل مفتوحًا أمام الأعداءِ ، وطلب الملكُ الكامل مشورةَ العلماءِ ، ومنهم : « ابن البيطار » فقال :

لقد استمعْتُ إلى رأيِّ رجالِ الحربِ - ويبقى أن أستمعَ لرأى العلماءِ ، وكيف يمكننا أن ننقذ دمْياطَ من أيدى الغزاة ؟!

وأدلى العلماءُ برأيهم جميعًا ، فلم يجد الملكُ الكاملُ فى أقوالِهم ما يَفِى بحـلِّ المشكلة ، وظـل « ابن البيطار » غـارقًا فى الصمتِ إلى أن قال له الملكُ : لماذا لم تقـلْ لنا رأيك يا « ابن البيطار » ؟!!

عندئذ تنبَّه « ابن البيطار » وقال : يا مولاى . . أرى أن الاستحكاماتِ التى أنشأها الجيشُ كافيةٌ ، لكنَّ طريق النيلِ لا حيلة إلى إغلاقِه ، والرأى فيه هو أن نغرق به عدةَ سفنٍ عند دمياط ، فلا تستطيعُ سفنُ الأعداءِ أن تجتازه إلى الجنوبِ ، وبهذا نمنعُ سفنَ الصليبيين من التقدمِ ، ويظل النهر يجرِى دون أن يصيبه أذًى .

عندئذٍ صاحَ الملكُ الكاملُ بفرحٍ شديدٍ قائلاً : هذا هو الرأى الصوابُ . . فالنيلُ هو الثغرةُ الوحيدةُ ، وقد أفلح « ابن البيطار » فى سدِّ الثغرةِ أمام الأعداءِ . . بُورِكْتَ يا « ابن البيطار » .

* * *

رحــلة الإبــداع

وبعدُ ثلاث سنواتٍ انتهتِ الحربُ ، ورحلَ الغزاةُ ، وبدأ الملك الكاملُ يعيدُ بناءَ مصر ، وبناءَ الجيشِ المصريِّ تحسُّبًا لعودةِ الغزاةِ الصليبيين ، وبالفعلِ عاد الغزاةُ مرةً أخرى لكن ليس إلى مصر هذه المرة وإنما إلى الشامِ .

لقد وصلتِ الأنباءُ إلى الهنغاريين (البلغاريين حاليًا) ، وقد قاموا بغزو الشَّام ، وأنهم فى طريقِهم إلى دمشقَ ، فقرَّرَ الملكُ الكاملُ الخروجَ على رأس الجيشِ المصرى لردِّ العدوانِ عن دمشقَ ، وذهب « ابن البيطار » مع الملكِ الكاملِ ليقومَ بدوره بين الجرحى فى العلاجِ والصيدلةِ .

وانتصرَ الملكُ الكاملُ وردَّ الحملةَ الصليبيةَ على أعقابِها ، ثم عاد إلى القاهرةِ ومعه « ابن البيطار » الذى كان قد بلغ من العمرِ أربعين سنةً ، وما إن عاد « ابن البيطار » إلى مصر حتى قرر أن يبدأ فى تأليفِ أولِ كتبِه وهو كتاب « شرح كتاب سقوريدس فى الأعشاب » .

وانتهى « ابنُ البيطار » من إملاءِ كتابِه الأول على تلميذِه « إبراهيم بن موسى » ولم يكد « ابن البيطار » ينتهى من إملاءِ كتابِه حتى استدعاه الملكُ الكاملُ وأخبره أن هناك غزوةً صليبيةً جديدةً ، وأن الغزاةَ يستهدفون « بَيْتَ المقدس » هذه المرة .

عندئذٍ فَزِعَ « ابنُ البيطار » وتملَّكه الحزنُ ، لكنه تمالك نفسه ثم قال :

سأكونُ معك يا مولاى ، سأخرجُ للحربِ معك كما خرجْتُ فى حربِ الشام .

انتهت الحربُ هذه المرةَ وقد اضطَّر الملكُ إلى تقسيمِ « بيت المقدس » بينه وبين الغزاةِ !

وعاد « ابن البيطار » إلى مصرَ فَفُجِعَ بعد قليلٍ بموتِ والدِه ، ثم توالتِ الأنباءُ عن سقوطِ « قرطبة » ثم « ميورقة » فى يد الفرنجةِ ، وزالت دَوْلةُ الموحدين ، واستولى بنو الأحمرِ على مدينة « ملقا » وتمزقتْ باقى البلادِ الإسلاميةِ بين حكّام الطوائفِ والقبائلِ ، فحزن « ابن البيطار » على ما أصاب القدسَ والأندلس بقدرِ حزنِه بموتِ والدِه .

عندئذٍ قررَ « ابنُ البيطار » أن يرحلَ إلى دمشقَ لعلَّه يجد العزَاء فى العملِ هناك . . ومرَّتِ السنواتُ حتى بلغ « ابن البيطار » من العمر اثنتين وخمسين سنةً ، وعندما جاءتِ الأخبارُ إلى دمشق تحملُ نبأ وفاةِ الملكِ الصالح عاد « ابن البيطار » إلى القاهرة ، وفُجِعَ بعد قليلٍ بوفاةِ والدتِه ، فاستبد به الحزنُ ، وكان الملكُ الصالحُ أيُّوب قد نجح فى توحيدِ الشام ومصر تحت رايةِ ملكهِ ، وهكذا تمكَّن هذا الملكُ من ردَّ الهجمة الصليبيةِ الطامعةِ فى النصف الأخيرِ من بيت المقدس ، بلْ تمكَّن أيضًا من تحريرِ القدسِ كلِّها فاستراح قلبُ « ابن البيطار » .

قرر « ابنُ البيطار » أن يتفرغَ ما بقى له من العمرِ لتدوينِ معارفِه فى علوم النباتِ ، وتأليفِ كتبه الخاصة ، وكان « ابن البيطار » قد انتهى فى فترةٍ سابقةٍ من تأليفِ كتابيه « المغنى فى الطب » و « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » .

وبدأ « ابن البيطار » بالفعلِ فى إملاء أول هذه المؤلفاتِ وهو كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ، وهو

الكتابُ الذى وضع فيه خلاصة ما عرفه القدماءُ والمعاصرون له وفى طليعتهم « الزهراوى ، والغافقى ، وديسقوريدس ، وجالينوس وأبقراط ، والإدريسى » إضافة إلى تجاربِه ومعارفهِ الخاصةِ ، وقد ذكرَ « ابن البيطار » فى هـذا الكتابِ ألفا وأربعمائـةَ دواءٍ ، وعنـدما بلغ « ابن البيطار » من العمر ستين سنة سافر مع زوجته إلى دمشقَ ، وظلَّ بها يعملُ ويؤلِّفُ إلى أن وافته المنيةُ سنة ستمائةٍ وست وأربعين هجرية ، ألفٍ ومائتين وثمانٍ وأربعين ميلاديةٍ .

* * *

صدر من هذه السلسلة

1- عبقري القرن العشرين **ألفريد نوبل**
2- أعظم علماء الكيمياء **جابر بن حيان**
3- صاحب النظرية النسبية **أينشتين**
4- عبقرى علم الرياضيات **الخوارزمى**
5- أعظم المخترعين **إديسون**
6- رائد علم الفلك **البيرونى**
7- مكتشف قانون الجاذبية **نيوتن**
8- علم أعلام الطب **ابن سينا**
9- مكتشف الميكروب **باستير**
10- مؤسس علم الصيدلة **ابن البيطار**